



الجدور التاريخية للتعليم المفتوح (المفاهيم والاتجاهات)*

**
د. مدحت دردونة



* تاريخ التسليم: ١٧ / ٢٠١٣ م . تاريخ القبول: ١١ / ٢٠١٤ م.
** أستاذ مساعد في اللغة العربية وآدابها/ فرع شمال غزة/ جامعة القدس المفتوحة.

ملخص:

التعليم المفتوح يعني في جوهره نظاماً تربوياً كاملاً، يمكنه أن يزود الدارسين ببرامج تربوية كاملة، تختلف في بنيتها وأنشطتها وطرق إدارتها عن البرامج التي تقدمها النظم التربوية التقليدية. إذ يتميز بالانفتاح الذي يقوم على المرونة في متطلبات التحاق الطالب ببرنامجه تعليمي، إضافة إلى تقديم المعرفة للبعيدون جغرافياً عن مؤسسة التعليم عبر وسائل حديثة ومتعددة.

وإذا كان هذا المفهوم من التعليم والتعلم قد استقر في أديباتنا المعاصرة بعد أن نمت بذرتة في دول مثل: أمريكا وأوروبا وأستراليا وبعض دول جنوب شرق آسيا، لسبقها في امتلاك الأدوات والوسائل المتقدمة اللازمة في هذا المجال، فإن هذا لا يعني خلو تراثنا العربي والإسلامي من ممارسات تربوية تلامس -في كثير من الأحيان- هذه المفاهيم المعاصرة، على الرغم من بعد الزمن، واختلاف الإمكانيات والأدوات المستخدمة.

وحتى لا نغمت الناس أشياءهم، فقد تناولنا في هذا البحث الجذور التاريخية للتعليم المفتوح، مبينين أهم المفاهيم المرتبطة بهذا النوع من التربية قديماً وحديثاً، ثم الممارسات الفعلية والآفاق المستقبلية. وقد ضم مقدمة، وثلاثة محاور، وخاتمة. وقد تحدثنا في المقدمة عن مفهوم التعليم المفتوح، وفلسفته، وأهدافه. أما المحاور فجاءت على النحو الآتي:

المحور الأول: التعليم المفتوح في الحضارة الإسلامية. **المحور الثاني:** التعليم المفتوح عند الأوروبيين. **المحور الثالث:** التعليم المفتوح في الجامعات العربية. ثم الخاتمة، وفيها أهم ما توصل إليه البحث من نتائج.

Abstract:

Distance education is an integrated educational system which provides the students with programs different than those of the traditional systems. It uses more flexible teaching methods and modern technologies which allow those who live far away from campuses to gain their college education. This educational concept flourished in America and Europe, then was adopted by Arab countries. That does not mean that our Islamic civilization had did not have similar practices to facilitate the process of education.

This research casts the light on the historical roots of distance education to clarify the most important concepts related to the field, the actual practices, and the future of the concept.

The research includes an introduction, and three themes:

- *The first: Distance education in Islamic civilization.*
- *The second: Distance education in European universities.*
- *The third: Distance education in the Arab universities.*

مقدمة:

لقد شهدت العقود الأخيرة تطوراً هائلاً في حقل التكنولوجيا بعامة وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات على خاصة، فأحدث ذلك تغييراً سريعاً في مجالات الحياة المختلفة، ونلمس هذا التغيير عن قرب في حياتنا اليومية، فالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية وغيرها خلت في ظل التكنولوجيا خطوات واسعة، وحققت إنجازات ما كان لها أن تكون لولا هذا التدفق المعرفي الهائل الذي وفرته التكنولوجيا الحديثة.

وبالنظر إلى الجانب التربوي، فقد كان لهذه التطورات انعكاسات واسعة على محتوى البرامج التعليمية، وقنوات نقل هذا المحتوى للراغبين في التعلم والمعرفة عبر تكنولوجيا متخصصة لتعليم هذه البرامج، مثل: الإذاعة والتلفاز والأشرطة والشبكات الحاسوبية وحقائب الملتيميديا والشبكة العنكبوتية الدولية وغير ذلك، وقد شكّل ذلك إضافة نوعية لحقل التربية والتعليم، مكنت أعداداً هائلة من الراغبين في إكمال تعليمهم الجامعي في مختلف الميادين من مواصلة طريقهم بأقل كلفة وأكثر فائدة، فأصبح التعليم متاحاً لكل الراغبين ومن جميع الأعمار عبر وسائل تناسب مع ظروفهم وأماكن تواجدهم، وذلك بفضل التعليم المفتوح الذي يتخذ من أحدث التقنيات أداة لإدارة العملية التعليمية التعلمية. وقد أقيمت مؤسسات تعليمية تبنت إدارة هذا النوع من التربية وهي الجامعات المفتوحة.

مر التعليم المفتوح بمراحل ثلاث عبر مسيرة تطوره، المرحلة الأولى: التعليم من خلال المواد التعليمية المطبوعة، وتعرف بمرحلة التعليم بالمراسلة. والمرحلة الثانية: التعليم من خلال وسائل الإعلام كالذياع والتلفاز والكمبيوتر ونحوه. أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة التعلم من خلال الاتصال والحوار والتفاعل بين المعلم والمتعلم عبر وسائط تكنولوجية متنوعة. وهذه المرحلة هي ما تبنتها الجامعات المفتوحة مع عدم إهمال اللقاءات الوجيهة، لما لها من أهمية في النواحي الوجدانية والنفسحركية⁽¹⁾. ومن الباحثين من وزع هذه المراحل الثلاث على مراحل خمس⁽²⁾.

وإزاء هذا التطور في مسيرة التربية وتطبيقاتها كان هذا المقال العلمي حول المسيرة التاريخية للتعليم المفتوح، أملياً أن نطل من خلاله إطلالة سريعة على تلك المسيرة، ملتزمين في ذلك بالأصول المرعية في هذا النوع من الكتابة العلمية، مع إيماننا بأن البحث في هذا الحقل من المعرفة يحتاج إلى دراسات مطولة، نرجو أن نوفق إلى إجراء بعضها في مقبل الأيام. أما هذا المقال فقد ضم مقدمة، وثلاثة محاور، وخاتمة. المحور الأول: التعليم المفتوح في الحضارة الإسلامية. والمحور الثاني: التعليم المفتوح عند الأوروبيين. والمحور الثالث: التعليم المفتوح في الجامعات العربية. ثم الخاتمة.

وقبل أن نبدأ في الحديث عن التعليم المفتوح في الحضارة الإسلامية من المفيد أن نلقي نظرة سريعة على مفهوم التعليم المفتوح وفلسفته، وأهم أهدافه

مفهوم التعليم المفتوح:

التعليم المفتوح اختصار لعبارة التربية المفتوحة، وقد استخدمت من زحمة المصطلحات التي تنتشر في الساحة التربوية من مثل، والتعلم المفتوح، والتعليم المفتوح، والتربية المفتوحة، والتعليم عبر المسافات، والتعلم المرن، وغيرها، وهي تعني في جوهرها نظاماً تربوياً كاملاً يمكنه أن يزود الدارسين وبخاصة الراشدين منهم ببرامج تربوية كاملة تختلف في بنيتها وأنشطتها وطرق إدارتها عن البرامج التي تقدمها النظم التربوية التقليدية⁽³⁾، ويشتمل التعليم المفتوح على جانبين، الجانب الأول: الانفتاح الذي يقوم على المرونة الكبيرة في متطلبات التحاق الطالب ببرنامج تعليمي، والجانب الثاني: البعد الذي يعني تقديم المعرفة للطالب البعيد جغرافياً عن المؤسسة. وكثير من الباحثين يستخدمون مصطلح "التعليم المفتوح" بالمعنى الذي تدل عليه عبارة التربية المفتوحة عن بعد.

ومن المفيد أن نتجاوز الخلاف حول المسميات، وأن نركز اهتمامنا حول المضامين. فللتربية المفتوحة أو التعليم المفتوح تعريفات عدة، لا نريد الغوص كثيراً في تفاصيلها أو نسترسل في تعدادها، وإنما نكتفي بالحد الأدنى الذي يؤدي الغرض. ومن هذه التعريفات أن التعليم المفتوح هو "تعليم جماهيري يقوم على فلسفة تؤكد حق الأفراد في الوصول إلى الفرص التعليمية المتاحة"⁽⁴⁾. وتعرفه الجمعية الأمريكية للتعليم عن بعد بأنه: "توصيل لمواد التدريس أو التدريب عن طريق وسيط نقل تعليمي إلكتروني"⁽⁵⁾. أما اليونسكو فقد عرفته بأنه: "الاستخدام المنظم للوسائط المطبوعة وغيرها، وهذه الوسائط يجب أن تكون معدة إعداداً جيداً من أجل جسر الانفصال بين المتعلمين والمعلمين، وتوفير الدعم للمتعلمين في دراستهم"⁽⁶⁾.

فلسفة التعليم المفتوح:

يقوم التعليم المفتوح بتقديم أساليب وطرائق جديدة تمكن المتعلم من مسابرة الانفجار المعرفي متجاوزاً في ذلك الأساليب التقليدية التي تؤكد على دور المعلم على حساب دور المتعلم، وهنا يوفر التعليم المفتوح للدارس أسلوب التعلم الذاتي، حيث الاعتماد على المعلم يكون في حده الأدنى، لأن الاعتماد عليه في كل شيء يقلل من شأن المتعلم وأهمية دوره في عملية التعلم، أو هو مركز عملية التعلم⁽⁷⁾. ثم إن التعليم المفتوح يوفر للجميع فرصاً متساوية في الحصول على فرص التعليم بغض النظر عن ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية وأماكن تواجدهم.

أهداف التعليم المفتوح:

يهدف التعليم المفتوح إلى تقديم الخدمات التعليمية لمن فاتتهم فرصة التعليم، بسبب ظروفهم الاقتصادية أو الجغرافية أو السياسية، فبعد أن توافرت لديهم الرغبة في التعليم وجدوا أن التعليم التقليدي لا يلائم ظروفهم، فكان التعليم المفتوح أملهم الوحيد نظرًا لما يتمتع به من مرونة وأنظمة تسمح لهم بالتعلم إلى جانب قيامهم بأعمالهم⁽⁸⁾، إضافة إلى تقديم برامج علمية وتوعوية لشرائح واسعة من أبناء المجتمع، وهو ما يسمى بالتربية المستمرة، أو التعليم مدى الحياة.

ولننتقل الآن إلى محاور المقال:

المحور الأول:

التعليم المفتوح في الحضارة الإسلامية:

لقد جاء الإسلام إلى الناس كافة، فدعا العقول إلى التفكير وأولى أهمية بالغة بالعلم والتعليم، فكان أول ما نزل من آي القرآن الكريم قوله تعالى "اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ باسم ربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم" (العلق 1 - 5). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد". وفي هذا تأكيد على استمرارية طلب العلم حتى آخر العمر، فالحياة تتطلب معرفة دائمة مستمرة لاكتشاف مجاهيل الكون ومعرفة قوانينه، ومهما بذل الإنسان من جهد في ميدان المعرفة، فإن ما يحصله يبقى غيضًا من فيض في بحر المعرفة الزاخر لقوله تعالى: "وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا" (الإسراء 85).

لم يكن عند المسلمين الأوائل مراحل معينة للتعليم كالابتدائي والإعدادي والثانوي والجامعي، وإنما هناك مرحلة واحدة تبدأ بالكتاتيب وتنتهي بالمسجد، وكان من المتعلمين من يتم هذه المرحلة وهم قليل، وآخرون يقفون في نصف الطريق أو ربعه، فمن الناس من تعلم في الكتاب حتى يقرأ ويكتب ويحفظ ما تيسر من القرآن الكريم ويحسن أمور دينه ثم ينصرف إلى العمل من صناعة وتجارة، ومنهم من يلزم الشيوخ يأخذ عنهم وينتقل من شيخ إلى آخر ومن بلد إلى بلد حتى يكتمل علمه ويصبح عالمًا له حلقة درس في المسجد⁽⁹⁾ يقول الإمام الشافعي: "كنت يتيمًا في حجر أمي فدفعتنني إلى الكتاب ولم يكن عندي ما تعطي المعلم، فكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها، ولم يكن عند أمي ما تعطيني أشترني به قراطيس، فكنت إذا رأيت عظمًا يلوح أخذه فأكتب فيه"⁽¹⁰⁾. وكانت المساجد أكبر معاهد للدراسة كمسجد عمرو بن العاص في مصر، ومسجد البصرة ومسجد الكوفة والحرم المكي والحرم المدني والمسجد الأقصى

وغيرها من المساجد التي كانت تقوم مقام المدارس والجامعات⁽¹¹⁾، فتعقد فيها حلقات الدرس في علوم الدين وعلوم العربية. أما أجرة المعلم فبعض المعلمين كان يعلم بلا أجر، فقد روي عن الضحاک بن مزاحم وعبد الله بن الحارث كانا يعلمان ولا يأخذان أجرًا، وبعضهم كان يأخذ أجرًا. هذا بالنسبة للعامة أما الخاصة من الخلفاء والأمراء والأغنياء فكانوا يتخذون لأولادهم معلمين خاصين، فأبو جعفر المنصور أقدم شرقي بن القطامي ليعلم ولده المهدي الأدب⁽¹²⁾، كما كان المفضل الضبي كذلك معلمًا للمهدي، وكان الكسائي مؤدبًا للأمين، وأبو محمد يحيى بن المغيرة اليزيدي مؤدبًا للمأمون، وكان الفراء مؤدبًا لولدي المأمون⁽¹³⁾. وظل التعليم على هذه الحال إلى أن أسس الوزير نظام الملك في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري مدارس نظامية ببغداد وبلخ ونيسابور وأصبهان والبصرة وطبرستان والموصل وغيرها⁽¹⁴⁾.

هذا هو باختصار نظام التربية عند المسلمين قديمًا، وهي طريقة اجتهد فيها العلماء في ضوء الإمكانيات المتاحة في زمانهم، ورغم هذا فإن طريقتهم لا تخلو من لفتات تربوية تقف شامخة أمام المفاهيم الحديثة للتربية، بل أمام التوجهات المعاصرة في مجال التعليم المفتوح:

يتحدث المتخصصون في التعليم المفتوح عن:

1. ديمقراطية التعليم التي تعني المساواة بين الناس في هذا المجال،
2. أن فلسفة التعليم المفتوح تقوم على حاجات المتعلم نفسه، سواء في أهدافه أو طرائقه.
3. توفير الفرص للالتحاق بالتعليم العالي لأعداد كبيرة ومتنوعة من الطلبة مهما كانت مؤهلاتهم وخلفياتهم.
4. التعليم المفتوح يفتح أمام الدارس آفاقًا رحبة لانطلاقة الفكر والحوار والمشاركة مع الآخرين.
5. دعم التوجه نحو التربية المستمرة مدى الحياة.
6. دور المعلم في المساعدة على حل المشكلات الشخصية للدارس.
7. ضرورة كفاءة المشرفين.

وقد تحدث القدماء ومارسوا بالفعل ديمقراطية التعليم، فكان باب التعليم مفتوحًا لكل من يستطيع أن ينفق عليه، بل أكثر من ذلك لا يعدم الطالب الفقير المتفوق الوسيلة للتعليم، وما ذكرناه من قول الشافعي الذي كان يعتمد عليه المعلم عند غيابه لدليل. وما ذكره آخرون من أن بعض المعلمين كان يأخذ أجرًا وبعضهم كان يحتسب أجره عند الله لهو دليل على المرونة والتسهيل على الطالب لإكمال تعليمه. ثم إن التعليم لم يكن يعوق الدارس عن مزاولته عمله؛ ولهذا أيضًا نبغ كثير من الأدباء والعلماء من طبقات فقيرة، كأبي العتاهية الذي كان خزانًا، وأبو تمام كان يسقي الناس بالجرة، وكان أبو يوسف القاضي في صباه قاصرًا⁽¹⁵⁾.

أما حرية الدارس في اختيار ما يناسبه من الدروس فقد كان هذا شائعاً ومعمولاً به، فكان في المساجد كثير من حلقات الدرس في علوم مختلفة الألوان، فهذه حلقة فقهه، وبجانبا حلقة نحو، وثالثة لإنشاد الشعر ورابعة لرواية الأخبار، وخامسة للحديث، وهكذا، والمتعلم حر في أن يذهب إلى أية حلقة، وإلى أي شيخ يريد، فإذا أتم علم شيخ انتقل إلى علم آخر أو شيخ آخر⁽¹⁶⁾. وكان طلاب العلم يشعرون بمتعة التعلم رغم المشقة، فقد كان عند كثير منهم مقصداً لذاته لا وسيلة، يرغب فيه لذته، سواء أنتج فقراً أم غنى. قال أبو عمرو بن العلاء: ” قيل لمنذر بن واصل: كيف شهوتك والأدب؟ قال: أسمع للحرف منه لم أسمع فتود أعضائي أن لها أسمعاً لتنعم مثل ما نعمت الآذان. قيل: وكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المضلة ولدها وليس لها غيره. فكيف حرصك عليه؟ قال: حرص المجرع الممنوع على بلوغ لذته للمال“⁽¹⁷⁾.

انطلاقة الفكر والحوار والمشاركة:

من أهم ما يميز انطلاقة الفكر وإثارة النقاش والحوار في التراث الإسلامي مجالس المناظرة التي كانت تعقد في الدور والمساجد وقصور الخلفاء، فقد كان العلماء والأدباء يتناظرون في المسائل الدينية وقضايا اللغة العربية، وكان الخلفاء والأمراء يساهمون في الحركة العلمية ويشجعون العلماء، ويشتركون بالرأي تأييداً وتفصيلاً. وقد تحدثت كتب الفقه والنحو عن بعض المناظرات العلمية في ذلك العصر، فعقد السيوطي - على سبيل المثال - فصلاً في كتابه (الأشباه والنظائر) عن هذه المناظرات، وقد سجلت لنا هذه المناظرات صورة مشرقة لأسلوب من أساليب نشر العلم والمعرفة وسبباً من أسباب الرقي العلمي، وشكلت حافزاً للعلماء للبحث والنظر وإعداد العدة لمثل هذه المواقف، نجد ذلك في مناظرات أصحاب مالك وأصحاب أبي حنيفة، ومناظرات الشافعي ومحمد بن الحسين، ومناظرات سيبويه والكسائي، ومناظرات الكسائي واليزيدي في مجلس يحيى البرمكي، ومناظرات الكسائي والأصمعي عند الرشيد وغيرها⁽¹⁸⁾. كما كانت المناقشة والمناظرة في عصور الإسلام المختلفة سمة دارجة بين العلماء وطلابهم، فكان العلماء يشجعون طلبتهم على المناقشة والمناظرة ويوجبون عليهم التمرن عليها، فكان الطالب يخالف - أحياناً - أستاذه في الرأي مع مراعاة التأدب والاحترام، وكان لهذه الحرية في إبداء الرأي والمناقشة أثر حيوي في طالب العلم جعله يجد في تعليم نفسه بنفسه ويعتاد حسن التفكير وجودة التعبير والقدرة على النقد وقوة الإقناع⁽¹⁹⁾.

واللافت للنظر أن هذا الأمر لم يقتصر على المناظرات الشفوية، بل تعدى ذلك إلى المناظرات بالمكاتبة، فنرى الليث بن سعد يكتب من مصر إلى مالك في المدينة يجادله في حجية إجماع المدينة، ويرد عليه مالك⁽²⁰⁾. وهذه الطريقة تظهر أن هؤلاء القوم كانوا يستخدمون التعلم المفتوح وفق الإمكانيات المتاحة لديهم، وهي المراسلة.

منهاج الدراسة:

لم يكن هناك منهاج خاص للتعليم، ففي الكتاتيب كان التعليم يقتصر على القراءة والكتابة وتعليم القرآن الكريم، وتنوع التعليم بعد الكتاتيب من فقه ولغة وحديث وما يتعلق بها، وكان لكل شيخ طريقته في التعليم، فالفقهاء من أصحاب الرأي يكثر من تفریع المسائل ويبحثون في ما لم يقع من الحوادث، وأصحاب الحديث يمتنعون عن ذلك ولا يجيزونه⁽²¹⁾ وكان الطالب يتخير ما يريده من دروس بحسب الغرض الذي يرمي إليه، فمن أراد أن يصبح كاتباً - مثلاً - اختار منهاجاً، ومن أراد أن يكون محدثاً فله منهج، وكذلك من أراد أن يكون فيلسوفاً أو فقيهاً... الخ. وتسجل لنا كتب التراث كيف كان الخلفاء يقومون بأنفسهم باختيار المنهج والموضوع الذي يرغبون فيه لأبنائهم، فقد وضع الرشيد منهج التعليم لابنه الأمين، فطلب من الكسائي أن يرويه من الأشعار أعفها، ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق، ويذاكره بأداب الفرس والهند⁽²²⁾. وقبل ذلك نرى معاوية بن أبي سفيان يخطط لنفسه منهجاً يحقق له رغباته وطموحاته السياسية والتاريخية، فيذكر ابن النديم أن معاوية استحضر عبيد بن شريه الجرهمي من صنعاء فسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وغير ذلك، فأجابته إلى مسألة، فأمر معاوية أن يدون ذلك وينسب إلى عبيد⁽²³⁾ وكان معاوية ينام ثلث الليل ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر وفيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكائد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها⁽²⁴⁾.

هناك شيء آخر مرتبط بالمنهاج لا بد من الحديث عنه وهو الكتب والمكتبات.

كانت بداية نشأت المكتبات في الحضارة الإسلامية في عصر بني أمية، وهي مكتبات خاصة، أهمها وأسبقها إلى الوجود مكتبة كانت لخالد بن يزيد الذي يعد صاحب أول مكتبة في الإسلام. وفي مستهل القرن الثاني الهجري انطلقت حركة التدوين مرتبطة بجمع الحديث والفقه والتفسير والمغازي والسير لما في ذلك من أهمية لفهم النص القرآني، ثم تتابع بعد ذلك تدوين العلوم وتبويبها والتأليف في مختلف فروع المعرفة، وشاعت الكتب وزاد اهتمام الناس بجمعها، وقد ازداد ذلك ازدهاراً كبيراً في العصر العباسي وبخاصة عصري الرشيد والمأمون، فقد كانت الحضارة في العصر العباسي على درجة عالية من التمام ووفرة المال، فازدهرت الصنائع والعلوم ونمت حركة التأليف والترجمة والنقل والتدوين والمكتبات، وازداد شغف الناس بالقراءة فأقبلوا على مجالس العلم التي تطور أداء علمائها ليتجاوز الأسلوب النمطي القائم على الحديث من المحفوظ أو الرواية عن صحف غير مرتبة إلى طريقة ارتجال المحاضرة والخوض فيها حسب الظروف وفي مواضيع متعددة⁽²⁵⁾.

ومع إقامة صناعة الورق أيام الرشيد ظهرت حرفة الوراقة، وظهرت طبقة تمارسها، فانتشرت الكتب على نطاق واسع، وأقيمت المكتبات، وكانت مكتبة " بيت الحكمة " أكبر مكتبة عامة نقلت إلينا أخبارها (26) ، حيث كان يعمل فيها علماء مختلفو الثقافة كيوحنا النصراني، وابن نوبخت الفارسي، وكان لها رئيس وأعاون يترجمون الكتب اليونانية وينسخونها (27) ، ثم كان للعزیز بالله الفاطمي في مصر مكتبة، وفي قصر قرطبة مكتبة (28) ، وغيرها. وقد قلد الأمراء والأغنياء والعلماء والأدباء خلفاءهم فكانت لهم مكتبات خاصة (29) .

وإذا كانت حلقات الدرس والمناظرات ومجالس الإملاء التي عرفتها الجوامع والقصور وغيرها مصدرًا من مصادر تحصيل المعرفة، فقد أضافت المكتبات الملحقة بالجامع رافدًا آخر لذلك، حيث تتيح الكتب للدارسين لينهلوا منها ما شاؤوا من العلوم والمعارف، كما كانت في الوقت نفسه مجتمعًا لطلاب العلم والعلماء حيث يتداولون المسائل العلمية فيما بينهم ويطرحون الأفكار حولها. وبجانب هذا وذاك كانت دكاكين الوراقين الذين ينسخون الكتب ويجلدونها ويبيعونها للناس مصدرًا إضافيًا لانتشار الثقافة والمعرفة، فكان المتعلمون يذهبون إلى دكاكين الوراقين يطالعون فيها الكتب حتى أن بعضهم كان يبیت في هذه الدكاكين لينهل من كتبها العلم " حدّث دهقان قال: لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بين يديه كتاب قط إلا استوفي قراءته كائنًا ما كان، حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر (30) .

والتعليم الذاتي كان سائدًا عند كثير من طلاب العلم في ذلك العصر، والجاحظ في النص السابق خير دليل على ذلك، وكذلك كان أبو حنيفة وغيره من العلماء، فقد تفقه بكثرة المطارحة والمناظرة في دكانه حين كان بزازًا (31) .

أما الدرجات العلمية والشهادات فلم يكن هناك درجات علمية تمنح بعد امتحان لمن أتم الدراسة، وإنما كان الامتحان امتحان الرأي من الطلاب والعلماء المحيطين به، فكان الطالب الذي يرى في نفسه القدرة على أن يجلس مجلس العلم ليدرس الآخرين يفعل ذلك، ولكنه يتعرض لجدل الطلاب والعلماء ومناقشتهم، وكان هذا يكفي لحماية العلماء من المتطفلين والجاهلين، فهذا هو أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة، اتخذ حلقة فسأل سائل عن مسألة فقهية فلم يعرف جوابها فعاد طالبًا إلى مجلس أبي حنيفة (32) . وهذه الطريقة التي فرضتها ضرورات الواقع تغطي مساحة واسعة من الإجراءات التي تقوم بها المؤسسات التعليمية المعاصرة بدأ من الامتحانات والشهادات ومرورًا بالمقابلات، ووصولًا إلى نظام المتابعة المستمرة لعمل المعلم، وهذه الطريقة تضع المعلم على الحد المسنون دائمًا، فهو بحاجة إلى تطوير أدواته باستمرار، وزيادة محصوله المعرفي، والاستفادة من التغذية الراجعة، وهذا بالضبط ما قرره علماء التربية المفتوحة عند الحديث عن الكفاءة وعن ضبط النوعية وعن التعليم المستمر. ونحن هنا لا ندعو إلى تبني نموذج

القدماء من جعل المواقف التعليمية معياراً أساسياً ووحيداً لقياس كفاءة المعلم دون اعتبار للشهادات العلمية، فالشهادات العلمية ضرورة من ضرورات العصر ومنجز لا غنى عنه، وإنما نشير إشارة سريعة إلى الأسلوب الذكي الذي تبناه المسلمون القدماء في ظل ظروفهم ومعطيات عصرهم.

المحور الثاني:

التعليم المفتوح في الجامعات الأجنبية:

مفهوم التعليم المفتوح:

يعد مفهوم التعليم المفتوح من المفاهيم التي أخذت حيزاً واضحاً على الخريطة الأكاديمية للتعليم العالي في كثير من دول العالم، إذ أصبح هذا النوع من التعليم مورداً مهماً للجامعات في سبيل التغلب على كثير من المشكلات المادية والأكاديمية على حد سواء.

إن فكرة التعليم المفتوح ليست جديدة، بل كانت مطروحة منذ القرن التاسع عشر، حيث إن كثيراً من المعاهد التربوية الخاصة والتجارية في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا استخدمت التعلم المفتوح وذلك بإيصال المواد التعليمية إلى الدارسين بنظام عرف بالدراسة بالمراسلة، وبعد النجاح الذي صاحب هذه التجربة بدأت بعض الجامعات باستخدام التعلم المفتوح في التعليم الجامعي مثل جامعة كوينزلاند في أستراليا، وجامعة إنجلترا⁽³³⁾.

ولتحديد مفهوم التعليم الجامعي المفتوح لا بد من الإشارة إلى بعض الجهود المبذولة من قبل التربويين المتخصصين في التعليم الجامعي المفتوح. عرفه كيجان بأنه: «مصطلح يتضمن مدى واسعاً من استراتيجيات التعليم والتعلم، ويشير إلى الدراسة عن بعد، والدراسة المستقلة في مستوى التعليم العالي»⁽³⁴⁾.

ويحدد (فيل ريس) مفهوم التعليم الجامعي المفتوح بأنه يعني أن الطالب أو المتدرب لديه الحرية في الاختيار والضببط، فالحرية تعني حرية المتعلم في انتقاء ما يتعلم، ومتى يتعلم، وكيف يتعلم. أما الضببط فيعني الضببط الذاتي؛ لأن المتعلم يكون مسئولاً عن تعلمه⁽³⁵⁾.
ومما سبق يمكن القول إن التعليم المفتوح هو تعليم جماهيري متاح لجميع الناس ويتسم بالمرونة من حيث شروط القبول به وطريقة التدريس، والزمان والمكان والمدى تبعاً لاحتياجات وظروف الدارسين من خلال هذه التعريفات وغيرها نجد أن التعليم المفتوح لا يختلف عن التعليم النظامي التقليدي في الأهداف العامة التي تسعى إلى توفير فرص التعليم والتعلم أمام الأجيال، ونقل المعرفة إليهم وتطوير قدراتهم ومهاراتهم ليتمكنوا من دخول مجالات الحياة المختلفة، ويسهموا

في مسيرة التنمية الشاملة، وإنما الاختلاف ينصب بالدرجة الأولى على الوسائل والأساليب التي تتبناها التربية المفتوحة في أداء رسالتها لكي توفر الفرص لأكبر قطاع ممكن من الجمهور للالتحاق ببرامج التعليم⁽³⁶⁾.

إذن تختلف الوسائل والهدف واحد، فكل جيل يبذل غاية طاقته للوصول إلى أهدافه مستفيداً من الإمكانيات المتاحة لديه. ونحن اليوم نعيش في عالم يتسم بسرعة التطور في شتى الميادين، وهذا التطور مبني في الأساس على الثورة التكنولوجية التي أحدثها الإنسان في العقود الأخيرة، وقد كان مركز هذه الثورة بلاد الغرب، ثم زحفت إلى شرق آسيا، وأخيراً طالت رباحها بلاد العرب والمسلمين. ومن هنا كانت أوروبا وأمريكا سباقة إلى استخدام هذه التكنولوجيا، وما يهمنها هو استخدامها في مجال التربية.

مع الزيادة المطردة في أعداد الراغبين في الحصول على التعليم، وبخاصة التعليم الجامعي وعدم مقدرة قطاعات كبيرة منهم على الالتحاق بالجامعات النظامية نتيجة ظروفهم المادية والحياتية وضغوط العمل، وفي ظل التطور السريع في وسائل الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات فقد شرعت المؤسسات الغربية في استخدام تكنولوجيا الاتصالات في عملية التعليم، فكان من نتاج ذلك ظهور ما يسمى التعليم المفتوح، وقد ظهر هذا النموذج بوضوح في منتصف القرن التاسع عشر في أسلوب التعليم بالمراسلة عبر الخدمات البريدية في العديد من الدول الأوروبية وفي الولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا⁽³⁷⁾.

واستمر هذا النوع من التعليم طوال النصف الأول من القرن العشرين، ففي عام 1906 م أسس في جامعة وسكونسن بالولايات المتحدة الأمريكية قسم للدراسات الخارجية للإشراف على التعليم المفتوح باستخدام المراسلة، وتبع ذلك في عام 1915 م تأسيس الرابطة القومية للتعليم الجامعي الممتد، وهي رابطة تضم في عضويتها جامعات وكليات عامة وخاصة تؤدي برامج تعليم بالمراسلة. وفي عام 1938 م أسس في كندا المجلس الدولي للتعليم بالمراسلة. وفي عام 1962 م تم تأسيس المجلس الأوروبي للتعليم بالمراسلة بهدف الارتقاء بالمستويات الأكاديمية والجوانب التطبيقية للتعليم بالمراسلة⁽³⁸⁾ ويعد هذا الجيل الأول من أجيال التعلم المفتوح، ثم عند استخدام البث الإذاعي عام 1901 م طفق العديد من دول العالم في توظيفه لبث البرامج التربوية والثقافية بوجه عام، وأنشئت جامعات ومعاهد في أمريكا وكندا والهند تقوم على تقديم خدماتها التعليمية على البث الإذاعي. ثم جاء اكتشاف التلفاز ليضيف للبريد والراديو وسيلة جديدة للتعلم ونقل المعرفة.

أما الوسيلة الأكثر تأثيراً في حقل التعليم والتعلم فكانت الحاسوب وما تعلق به من إمكانيات تكنولوجية للاتصالات كالشبكات والأقراص والإنترنت وغيرها، وهذه الوسيلة توافرت للجماهير بشكل عملي في التسعينيات من القرن العشرين، الأمر الذي سهل عملية التعلم المفتوح، وإقامة

مؤسسات تعليمية تتبنى استخدام هذه التقنية كوسيط في عملية التعليم والتعلم كالجامعات المفتوحة.

لقد تبلور مفهوم التعليم المفتوح على المستوى النظري وعلى صعيد الممارسة العملية في الستينيات من القرن العشرين، ولقد أثبتت الجامعة البريطانية المفتوحة التي بدأت الدراسة فيها عام 1971 م أنها الأكثر نضجاً وتطبيقاً لمفهوم التعليم المفتوح، نظراً لنظام الدراسة المتبع والمواد التعليمية المستخدمة بما يتلاءم وأوضاع الدارسين الاجتماعية والاقتصادية، حيث كلفة التعليم الجامعي عن بعد أقل من التعليم الجامعي التقليدي، فكان من أهدافها

1. تعليم الكبار، وذلك من خلال إعادة صياغة الأهداف والمحتوى والوسائل التعليمية في بريطانيا لتلائم طبيعة العصر ولتواكب التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمع البريطاني.

2. التوسع في خدمات البث التعليمي الإذاعي والتلفزيوني وتكنولوجيا وسائل الاتصال الجماهيري.

3. نمو الوعي السياسي بديمقراطية التعليم العالي وتحقيق مبدأ المساواة فيه (39).

لقد أدت التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي أعقبت الحرب العالمية الثانية في بريطانيا إلى ارتفاع مستويات الحياة، ونمو الوعي السياسي للطبقة العاملة، وزيادة إحساسها بضرورة تحسين أحوالها الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، فرفعت شعار « ديمقراطية التعليم » وتوسيع فرصه، وبخاصة في التعليم العالي، وكان شعار « التربية للحياة » الذي ساد في بريطانيا وأوروبا وأمريكا الشمالية في أعقاب الحرب العالمية الثانية - وهو شعار يهدف إلى توجيه محتوى التربية للاهتمام بنمو الاتجاهات والقيم الاجتماعية الجديدة من أجل المواطنة الصالحة - السبب الرئيسي وراء ضرورة الاهتمام بالتعليم المستمر مدى الحياة، وهو هدف من أهداف الفلسفة التربوية.

ومع أن أقدم جامعة مفتوحة على مستوى العالم هي جامعة جنوب أفريقيا التي بدأت عملها عام 1946 م (40)، إلا أن الجامعة البريطانية كانت فاتحة الطريق لنشوء جامعات أخرى وبشكل متسارع، فكان إنشاء الجامعة الوطنية للتعليم المفتوح في إسبانيا وقد بدأت فيها الدراسة عام 1973 م، وهذه الجامعة تتميز بطابعها الوطني وطريقة تدريسها، فتستخدم وسائل الاتصال الجماهيري وتتعاون مع الجامعات الإسبانية، وتستعمل أحياناً مواد مقرر في الجامعات التقليدية، وتتيح لطلاب الأخرى فرصة اختيار مواد من الجامعة المفتوحة لدراستها، ومن ثم تقوم بمعادلتها لهم. تقبل الطلاب دون الحصول على درجات علمية مسبقة، وتمنح الدرجات الجامعية بالإضافة إلى درجتي الماجستير والدكتوراه (41). وجامعة فيرن يونيفرسات في ألمانيا عام 1975 م، وجامعة اتاباسكا في كندا عام 1975 م وجامعة العلامة إقبال المفتوحة في باكستان، وقد بدأت الدراسة

فيها عام 1975 م، وجامعة أبيرتا الوطنية في فنزويلا عام 1977 م، ومعهد سيريلانكا للتعليم المفتوح عام 1978 م، وجامعة التلفاز والاذاعة المركزية في الصين عام 1979 م، وجامعة سوكاناهي المفتوحة في تايلاند، وقد باشرت برامجها عام 1980 م، وقد حازت هذه الجامعة على اعتماد منظمة اليونيسكو كجامعة رائدة لقارة آسيا والباسيفيك في مجال التجديد التربوي في التعليم العالي، سواء من حيث عدد الدارسين أو تعدد وتنوع البرامج التي تقدمها x، وجامعة الهواء والمراسلة الكورية عام 1982 م، وجامعة تربوكا المفتوحة في أندونيسيا عام 1984 م، وجامعة الهواء المفتوحة في اليابان، حيث بدأت نشاطها عام 1985 م، ومن فلسفتها تقديم تعليم جامعي للعاملين بما فيهم ربات البيوت، وجامعة أنديرا غاندي عام 1985 م، والجامعة الوطنية المفتوحة في تايوان عام 1987 م، وجامعة اوبرتا في البرتغال عام 1990 م، والقائمة تطول (42) ، فقد أخذ التعليم المفتوح يزحف إلى كل أصقاع الأرض وانتشرت الجامعات على نطاق واسع، ومدت أذرعها حول العالم، ففتحت أفرعاً للجامعات المفتوحة في العديد من دول العالم.

ومع هذا التدفق العلمي والمعرفي الذي حققته الجامعات المفتوحة على مستوى العالم، فإننا نجد من يتطفل على هذا النمط من التعليم ويسيء إليه، ولذلك تقوم الدول بتقديم لوائح إرشادية لطلابها تبين لهم الجامعات الجادة التي يتم الاعتراف بها حتى لا يقعوا فريسة لدوائر النصب والاحتيال التي تندس في وسط هذا النمط التعليمي وتتلفح بعباءته.

المحور الثالث:

التعليم المفتوح في الجامعات العربية:

عرفت بعض الجامعات العربية نظام الانتساب، منذ السبعينيات من القرن الماضي، وتم العمل بهذا النظام في جامعة بيروت العربية التي كان مقرها في بيروت بلبنان، ولها مكاتب في الإسكندرية بمصر وعمان بالأردن، وكان الطالب ينتسب للجامعة عن طريق فروعها، ويحصل على الكتب الدراسية، ويذهب آخر العام لمقر أحد فروعها للاختبار، وربما كان الدافع وراء هذا النمط من التعليم الظروف الأمنية الصعبة التي كانت تعيشها لبنان، وعدم قدرة العديد من الطلاب العرب الذهاب إلى بلد المقر الرئيسي. إذن هي خطوة فرضتها الظروف، ولم يكن مخططاً لها أن تتطور لنظام التعلم المفتوح بمفهومه المتعارف عليه اليوم. وفي كل الأحوال فقد شكل هذا النمط نوعاً من أنواع التعلم المفتوح، يتفق تماماً مع الجيل الأول من أجيال التعلم المفتوح، يعتمد فيه الطالب على نفسه اعتماداً كلياً. ثم كان العقد التاسع من القرن الماضي، فشهدنا تقدمًا هائلاً في مجال التكنولوجيا الأمر الذي شجع عدداً من المؤسسات التعليمية على الاستفادة من هذا التقدم، بتوظيفه في حقل التربية والتعليم، فكان للتعليم العالي حصة لا بأس بها، استطاعت الجامعات

من خلال ما توافر لديها من إمكانيات أن تطور من أدائها على المستويين الإداري والأكاديمي، ثم أنشئت جامعات متخصصة في نمط التعليم المفتوح، وكانت جامعة القدس المفتوحة في فلسطين التي باشرت العمل عام 1991 م سبابة إلى ذلك، تلتها جامعة القاهرة، حيث أنشأت مركزاً للتعليم المفتوح في الفترة نفسها، ثم في عام 2001 م أنشأت معظم الجامعات السورية أقساماً للتعليم المفتوح، وجاءت الجامعة العربية المفتوحة عام 2002 م ومقرها الكويت ولها فروع في الأردن والسعودية ولبنان، ثم انتشرت الجامعات المفتوحة في معظم البلاد العربية مع الفارق النسبي بين جامعة وأخرى، فمن هذه الجامعات ما يتبنى التعليم المفتوح، ومنها ما يتبنى نمطين: نمط التعليم المفتوح والنمط التقليدي، كمعظم الجامعات العربية، ومنها جامعة القدس المفتوحة التي تبنته وأخذت به.

عوامل نشأة الجامعات المفتوحة في الوطن العربي:

العالم العربي لا يعيش بمعزل عن التغيرات التي تحدث في العالم، فكثير من المشكلات التي يواجهها الناس في أوروبا وأمريكا وآسيا يعاني منها الإنسان العربي، وربما بصورة أكبر، كمشكلة البطالة، وغلاء المعيشة والطلب المتزايد على التعليم الجامعي، وغلاء الرسوم الجامعية، وضرورة نشر المعرفة والوعي على نطاق واسع بين الجماهير لما لذلك من أثر في عملية التنمية، إضافة إلى الزيادة الملحوظة في التحديات التي تواجه الوطن العربي على مستويات متعددة منها: ارتفاع نسبة الأمية في أوساط الكبار، وزيادة أعداد الفقراء في كثير من البلاد العربية، والقيود المفروضة على تنقل الأفراد بين هذه الدول. كل هذا وغيره يدفع المؤسسات التعليمية نحو استخدام نمط مميز من التعليم يسهم إسهاماً ملموساً في التغلب على هذه التحديات. ولما كانت تجربة التعليم المفتوح في العديد من الدول الغربية قد أتت بثمار جيدة، فإن الاستفادة من هذه التجربة أصبح أمراً ضرورياً، ومن هنا كان التوجه نحو التعليم المفتوح والتعلم المفتوح. فكانت جامعة القدس المفتوحة في فلسطين عام 1991 م، ومركز التعليم المفتوح في جامعة القاهرة عام 1991 م، والجامعة العربية المفتوحة ومقرها في الكويت عام 2002 م، والتعليم المفتوح في الجامعات السورية عام 2001 م،

ثم انتشرت المراكز الأكاديمية التي تدرس بنظام التعليم المفتوح في العديد من الدول العربية.

إن المعرفة الإنسانية تشهد تطوراً مذهلاً في وقتنا الراهن نظراً للتقدم العلمي والتكنولوجي وما أتاحه من إمكانيات هائلة في الحصول على المعرفة بثتى الوسائل، والتربية بمعناها الشامل تأثرت إلى حد بعيد بالتغيرات العلمية والتكنولوجية فلم تعد مضامين التربية وأساليبها وطرقها وما يتصل بها من مناهج دراسية بعيدة عن هذه التطورات، بل أصبحنا نشهد اليوم ثورة تربوية

هائلة تأخذ أشكالاً متعددة، ولم تعد الأنماط التقليدية في عمليات التعليم والتعلم القائمة على التفاعل المباشر بين المعلم والمتعلم قادرة على متابعة ما يجري في فروع المعرفة كافة، فكان لا بد من استحداث طرائق ووسائل جديدة تمكن المتعلم من استيعاب هذه المعرفة الجديدة وفهمها والتعامل معها من منظور مختلف (44).

وإذا أرادت الجامعات والمعاهد بإمكاناتها المحدودة تحقيق أهدافها المنشودة في توفير فرص التعليم والتعلم لكل راغب فيه وقادر عليه، فإنها لن تستطيع ذلك إذا ما استمرت باستخدام الأساليب التقليدية في المعالجة، ولذلك لا بد من البحث عن أنماط جديدة في التعليم تتخطى تلك المعوقات وتتجاوزها، وتستطيع الوصول إلى مناطق أوسع بأيسر السبل وأكثرها اقتصاداً في الوقت والمال. (45)

ويعد التعليم المفتوح من أهم هذه الأساليب التي تساعد الإنسان الفرد والمجتمع على النهوض وتحقيق أهداف التقدم والرقي ومواكبة العصر، فالتعليم المفتوح لم يعد مجرد ضرورة من ضرورات مواجهة التغيير المتسارع، بل إنه يسهم أيضاً في حل كثير من المشكلات وتلافي جوانب القصور الناتجة عن تلبية متطلبات الحياة المعاصرة من التعليم والتدريب والتثقيف في ضوء الأنماط الحديثة.

ويلخص نشوان مبررات التعليم الجامعي المفتوح فيما يأتي:

- ◆ أولاً: توفير فرص التعليم الجامعي لأولئك الأفراد الذين أعاقتهم ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية عن الالتحاق بالجامعات بعد مرحلة الثانوية مباشرة.
- ◆ ثانياً: يمكن التعليم الجامعي المفتوح الأفراد في المناطق النائية من مواصلة تعليمهم على الرغم من بعد المسافات، وذلك من خلال تأمين المقررات والمواد التعليمية لهم واستغلال النظام التكاملي متعدد الوسائط في تسهيل التفاعل بين الدارسين والمشرفين.
- ◆ ثالثاً: يسمح التعليم الجامعي المفتوح للدارسين بالجمع بين الدراسة والعمل، والاستمرار في الدور المنتج إلى جانب التحصيل الدراسي.
- ◆ رابعاً: يتيح نظام التعليم المفتوح للمرأة والأم إكمال تعليمها العالي بكل سهولة ويسر عبر التقنيات التربوية وفي الأوقات التي تناسبها.
- ◆ خامساً: إن التعليم الجامعي المفتوح يساهم في استيعاب أعداد كبيرة جداً من الدارسين، تفوق القدرة الاستيعابية للجامعات التقليدية؛ وذلك نظراً للاعتماد على الوسائط التعليمية وإعداد المواد التعليمية القائمة على الدراسة الذاتية.
- ◆ سادساً: إن التعليم الجامعي المفتوح يعتمد على التعليم الذاتي، ويحث الدارسين على مواكبة التطورات المعرفية المتسارعة، وهذا يوفر مساحة واسعة للدارسين لكي يكتسبوا مهارات التعليم والدراسة الذاتية اللازمين لمتابعة كل جديد في المعرفة.

♦ سابعاً: يتصف التعليم الجامعي المفتوح بالمرونة من حيث التنظيم الإداري والأكاديمي، فلا توجد حدود أو حواجز للقبول، حيث يمكن قبول الدارسين بغض النظر عن العمر أو الدرجات، أو الوظيفة، أو مكان السكن.

♦ ثامناً: يستجيب نمط التعليم المفتوح لمبدأ الدافعية الداخلية للتعلم اللازمة لتحقيق النجاح والإنجاز.

♦ تاسعاً: يمكن أن يوفر التعليم الجامعي المفتوح فرص التعلم لمستويات دون الدرجة الجامعية الأولى، وذلك من خلال برامج أكاديمية لمدة سنة أو سنتين جامعتين، ومن ثم يحصل الدارس على شهادة متوسطة بناء على رغبته (46).

إن مجتمعنا العربي وهو يطرق أبواب التقدم بعد أن اختط لنفسه أسلوب التنمية الشاملة لجميع موارده البشرية والطبيعية هو في أمس الحاجة لاستغلال جميع الطاقات والموارد بالشكل الذي ينسجم مع تطلعات الأمة ويحقق أهدافها في التكامل الاقتصادي والاجتماعي ويجنبها الهدر في الموارد الطبيعية والإمكانات البشرية.

وهذا الاستغلال لا يتأتى إلا من خلال الاهتمام بتعليم الشرائح والأعمار كافة وتدريبهم صغاراً وكباراً وفي أي مرحلة من مراحل العمر، فكثير من الدلائل تشير إلى أن تعليم الكبار قد أصبح ميداناً مهماً من ميادين التربية الحديثة، وبخاصة في ميدان التعليم العالي ويقوم تعليم الكبار في أساسه على فكرة التربية المستمرة والتعليم مدى الحياة، وينظر إليه على نحو عام أنه «التعليم الهادف المنظم الذي يقدم للبالغين أو الراشدين أو الكبار غير المقيدون في جامعات نظامية من أجل تنمية معارفهم ومهاراتهم أو تغيير اتجاهاتهم وبناء شخصياتهم». في إطار تعليم غير منته بسن معينة أو برامج معينة أو سنوات دراسية معينة (47) وبشكل عام يعدّ تعليم الكبار أوسع وأشمل من مجرد محو الأمية بل يتعدى ذلك إلى تعليمهم منظومة معرفية واتجاهات قيمية وعلمية تعوضهم ما فاتهم من تعليم عالٍ لأسباب اقتصادية أو اجتماعية حالت دون إكمالهم تعليمهم الجامعي.

سار وطننا العربي خطوات لا بأس بها في هذا المضمار، وحققت جامعات التعليم المفتوح إنجازات يمكن أن تشكل أرضية مناسبة لانطلاقة واسعة ومدروسة نحو تطوير منظومة التعليم بما يتناسب مع تطورات العصر، غير أننا لا يجوز أن نغفل التحديات التي تواجه هذا النمط من التعليم، وبخاصة ما يتعلق منها باستخدام قنوات توصيل المعرفة وطرائق استخدامها في مجتمعات حديثة العهد بالثورة التكنولوجية، ولهذا تطلب الأمر إدخال هذا النظام التعليمي إلى جامعاتنا

ومجتمعاتنا بالتدرج، وخير مثال على ذلك التجربة الناجحة التي قامت بها جامعة القدس المفتوحة برغم الإمكانات المحدودة والتحديات الجمة التي واجهتها. وللوصول إلى هدفها المنشود قامت أولاً بتشجيع البحث العلمي في موضوعات التعليم المفتوح على المستويين النظري والعملية للوصول إلى رؤية واضحة ونتائج دقيقة حول مسيرة التعليم المفتوح والتركيز على الجوانب الإيجابية وتنميتها، واتخاذ الخطوات اللازمة للتغلب على المعوقات والسلبيات، وثانياً أقدمت الجامعة على عقد دورات مكثفة لاطلاع العاملين فيها على طرائق استخدام تكنولوجيا الاتصالات في عملية التعليم والتعلم، حتى اجتاز معظم العاملين (إداريين وأكاديميين) دورات تدريبية على أنظمة العمل بنجاح، وهم الآن يقدمون خدمة تعليمية على مستوى عال من الجودة عبر أنظمة متعددة، منها نظام المودل، ونظام الصفوف الافتراضية، بالإضافة إلى البوابة الأكاديمية بإمكاناتها المتعددة، وهي طرق يتم من خلالها الاتصال مع الدارسين، إما اتصالاً حياً متزامناً وإما اتصالاً غير متزامن. إضافة إلى التواصل عن طريق اللقاءات الوجيهة التي تتم بين الدارسين والمشرفين الأكاديميين.

الخاتمة:

تبين لنا من خلال هذا المقال أن العليم المفتوح، أو التربية المفتوحة نمط من التعليم والتثقيف، ليس غريباً عن البيئة الحضارية الإسلامية، إذ كانت أشكاله تمارس وفق الإمكانات المتاحة في تلك العصور، سواء أكان ذلك على صعيد المرونة المتاحة للمتعلم في اختيار الموضوعات التي يرغب في تعلمها عن طريق حلقات الدرس المتنوعة، أم على صعيد الحصول على المعلومة، رغم بعد المسافة الجغرافية، وذلك من خلال استخدام نظام المراسلة. كما نقلت إلينا الحضارة الإسلامية نماذج متقدمة من طرائق التعليم القائمة على المشاركة والحوار، من خلال المناظرات التي كان العلماء والخلفاء يعقدونها في دواوين الخلافة وفي المساجد، كما كانوا يتحرون الدقة في الإجازات الممنوحة لطلاب العلم. كل هذه الممارسات التربوية وغيرها تعد من صميم التعليم المفتوح بمسمياته المختلفة.

غير أن العلم ذو طبيعة تراكمية، ولا شك في أن تقدم الوسائل والأدوات يسهم في إحداث نقلة نوعية في حقل المعرفة، هذه النقطة سبقتنا إليها في العصر الحديث دول أخرى كأمريكا وأوروبا، فأضافت إلى الرصيد المعرفي للبشرية قدراً ملموساً، كان للتربية المفتوحة نصيب منه. ثم التحق بركب التقدم أمم أخرى، وأمم مازالت في طريقها إلى اللحاق. وليس غريباً - والحال

هذه - أن نشهد بدايات المفاهيم الجديدة للتعليم المفتوح عند تلك الأمم المتقدمة، لتنتقل بعد ذلك إلى أدبيات الأمم الأخرى، ومنها الأمة العربية، فيسهم كلٌ بنصيب، ويراكم اللاحق على تجارب السابق، حتى يصبح التعليم المفتوح قادراً على تقديم الخدمة إلى معظم شرائح المجتمع التي يمكن لها أن تتابع البرامج التعليمية التي تبتها المعاهد والجامعات المفتوحة. ويبقى مدى الاستفادة مرهوناً بالإعداد الجيد لهذه البرامج، وفعالية قنوات الاتصال، والمتابعة المستمرة التي تقوم بها المؤسسة التعليمية لنظام العمل، والتواصل الدائم مع أحدث ما توصل إليه العلم في مجال تكنولوجيا الاتصالات.

الهوامش:

1. مدخل إلى التربية المفتوحة عن بعد، سفيان كمال، منشورات جامعة القدس المفتوحة، المطبعة الجامعية، نابلس، 2006، ص 41.
2. العولمة والتربية، صالح الدباسي، مطبعة السفير، ط 1، الرياض، 1423 هـ، ص 34. وهي مراحل أسماها تايلر أجيال التعليم المفتوح. انظر، مدخل إلى التربية المفتوحة عن بعد مرجع سابق ص 34.
3. مدخل إلى التربية المفتوحة عن بعد، مرجع سابق، ص 13.
4. وسائل الاتصال وتكنولوجيا التعليم، ربحي عليان ومحمد الدبس، درا الصفا للنشر، ط 1، عمان، 1999.
5. التعليم المفتوح باستخدام الانترنت، علاء الدين العمري، مجلة المعرفة، الرياض، العدد 91، 1423 هـ، ص 6.
6. التربية في الوطن العربي، يعقوب نشوان، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان 1425 هـ، ص 250.
7. مدخل إلى التربية المفتوحة عن بعد، مرجع سابق، ص 63 – 64.
8. الانفجار المعرفي، محمد البدراني، مكتبة الرشيد عمان، 1422 هـ، ص 37.
9. ضحى الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، ج 2، ط 10، بيروت 1935، ص 66.
10. جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، المطبعة المنيرية، القاهرة، د. ت. ج 1 ص 98.
11. ضحى الإسلام، مرجع سابق، ص 52.
12. المرجع السابق ص 54.
13. وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج 1، ص 462.
14. ضحى الإسلام، مرجع سابق، ص 49.
15. المرجع السابق، ص 68.
16. المرجع السابق، ص 67.
17. معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1993 م، ج 1 ص 19.

18. الأشباه والنظائر في النحو، السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984 م، ج 3، ص 15 وما بعدها.
19. التربية الإسلامية وفلاسفتها، محمد عطية الإبراشي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1996، ص 210.
20. ضحى الإسلام، مرجع سابق، ص 170.
21. المرجع السابق، ص 67.
22. المرجع السابق، ص 69.
23. الفهرست لابن النديم، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة للطباعة والنشر 1997 م، ص 132.
24. مروج الذهب للمسعودي، دار الأمير للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، ج 5، ص 78.
25. تاريخ الإسلام للذهبي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكاتب العربي، لبنان، 1987 م.
26. ضحى الإسلام، مرجع سابق، ص 61.
27. المرجع السابق، ص 62.
28. الخطط المقرزية، المقرزي، مكتبة مدبولي 1997 م، ج 1، ص 408.
29. وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج 1، ص 92.
30. معجم الأدباء، ج 6، ص 56.
31. تعليم المتعلم في طريق التعلم، برهان الدين الزرنوجي، الدار السودانية للكتب، 2004م، ص 77.
32. ضحى الإسلام، مرجع سابق، ص 68.
33. denek – The university of new England 1994.
34. kegan. Theoretical principles of distance education. London. 1993.
35. Phil , Race. Open and Flexible Learning. 1998.
36. التعليم المفتوح، أعمال الندوة التي نظمها منتدى الفكر العربي بالتعاون مع جامعة القدس المفتوحة
37. مدخل إلى التربية المفتوحة عن بعد، مرجع سابق، ص 30.

38. التعليم الجامعي المفتوح عن بعد، من التعليم بالمراسلة إلى الجامعة الافتراضية، إسماعيل حجي، عالم الكتب، مطبعة أبناء وهبي، القاهرة 2003.
39. موقع الجامعة، www.open.ac.uk
40. مدخل إلى التربية المفتوحة عن بعد، مرجع سابق، ص 83.
41. موقع الجامعة [/http://www.Uned.es](http://www.Uned.es)
42. مدخل إلى التربية المفتوحة عن بعد، مرجع سابق، ص 82 وما بعدها.
43. المرجع السابق، ص 34.
44. إدارة التعليم المفتوح والتعليم الجامعي المفتوح، يعقوب نشوان، دار الفرقان، الأردن، 2004.
45. التعليم المفتوح والتعلم المفتوح في الوطن العربي (الواقع والمستقبل) عايدة أبو غريب، الشبكة العربية للتعلم عن بعد والتعليم المفتوح، الأردن، 2004.
46. إدارة التعليم المفتوح، مرجع سابق.
47. تطور نظام التعليم في الأردن من 1921 – 1989، مؤثرات وعوامل، عمان 1989.

المصادر والمراجع:

أولاً- المراجع العربية:

1. إدارة التعليم المفتوح والتعليم الجامعي المفتوح، يعقوب نشوان، دار الفرقان، الأردن، 2004
2. الأشباه والنظائر في النحو، السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1984 م، ج 3.
3. الانفجار المعرفي، محمد البدراني، مكتبة الرشيد عمان، 1422 هـ.
4. تاريخ الإسلام للذهبي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكاتب العربي، لبنان، 1987 م.
5. التربية الإسلامية وفلاسفتها، محمد عطية الإبراشي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1996.
6. التربية في الوطن العربي، يعقوب نشوان، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان 1425 هـ.
7. تطور نظام التعليم في الأردن من 1921 – 1989، مؤثرات وعوامل، عمان 1989.
8. التعليم الجامعي المفتوح عن بعد، من التعليم بالمراسلة إلى الجامعة الافتراضية، إسماعيل حجي، عالم الكتب، مطبعة أبناء وهبي، القاهرة 2003.
9. تعليم المتعلم في طريق التعلم، برهان الدين الزرنوجي، الدار السودانية للكتب، 2004 م.
10. التعليم المفتوح، أعمال الندوة التي نظمها منتدى الفكر العربي بالتعاون مع جامعة القدس المفتوحة
11. التعليم المفتوح باستخدام الانترنت، علاء الدين العمري، مجلة المعرفة، الرياض، العدد 91، 1423 هـ.
12. التعليم المفتوح والتعلم المفتوح في الوطن العربي (الواقع والمستقبل) عائدة أبو غريب، الشبكة العربية للتعليم عن بعد والتعليم المفتوح، الأردن، 2004.
13. جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، المطبعة المنيرية، القاهرة، د. ت. ج 1.
14. الخطط المقرزية، المقريزي، مكتبة مدبولي 1997 م، ج 1.
15. ضحى الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، ج 2، ط 10، بيروت 1935.
16. العولمة والتربية، صالح الدباسي، مطبعة السفير، ط 1، الرياض، 1423 هـ.

17. الفهرست لابن النديم، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة للطباعة والنشر 1997 م.
18. مدخل إلى التربية المفتوحة عن بعد، سفيان كمال، منشورات جامعة القدس المفتوحة، المطبعة الجامعية، نابلس، 2006.
19. مروج الذهب للمسعودي، دار الأمير للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، ج 5.
20. معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1993 م، ج 1.
21. وسائل الاتصال وتكنولوجيا التعليم، ربحي عليان ومحمد الدبس، درا الصفا للنشر، ط 1، عمان، 1999.
22. وفيات الأعيان لابن خلكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج 1

ثانياً. المراجع الأجنبية:

1. denek – The university of new England 1994
2. kegan. Theoretical principles of distance education. London. 1993
3. Phil , Race. Open and Flexible Learning. London. 1998

ثالثاً. المواقع الإلكترونية:

1. www.open.ac.uk
2. <http://www.uned.es>